والامر الثاني عزو بناء تدمر الى سليمان الحكيم وهو يوافق ما جاء في التوراة ونصهُ حكذا "وبنى سليمان جازر وبيت حورون السفلى وبعلة وتدمر في البريَّة" ولكنَّ المؤرخين قد اجمعوا على ان تدمر اقدم عمرانًا من ايام سليمان. وقد صرَّح صاحب المرآة الوضيَّة الفيلسوف فان ديك ان مراد الكتاب هو ان سليمان حسَّنها وزاد في ابنيتها. قلتُ وعلى هذا الوجه يتخرَّج ما قالهُ احد مؤرخي العرب ان جبلة بن الايهم الغسَّاني بنى جلق اي دمشق وهي اقدم من عصرهِ فكأنَّ المؤرخ اراد ان يبالغ في ما اجراهُ جبلة فقال بنى بدلاً من ان يقول حسَّن وزاد

وتحسين المدن القديمة حتى تكاد تنسب لحسنيها من صفات ذوي السلطة من المتقدمين كسليمان ومن المتأخرين كالخديوي توفيق الذي اولى مدينة حلوان من اهتمامهِ مايسوِّغ للمؤرخ ان ينسب بناءها اليهِ مع انها كانت قبلهُ بمئين من السنوات

والامر الثالث مما يستفاد من كلام النابغة هو اعتقاد العرب بالجن وانهم هم الذين بنوا تدمر وهذا لا يطابق الكتاب المقدَّس اذا أُخذ على حقيقتهِ ولكنهُ اذا أُخذ على معنى مجازي اي استخدام مهرةٍ فاقوا بمهارتهم حتى كادت قواهم العقلية تعدُّ غير بشرية صحَّ المعنى

وبهذه الفقرة كفاية لتأييد ما ذهبتُ اليهِ من امكان استحصال الامور التاريخية من الشعر وانتقل الى ايراد بعض ما لهُ منزلة خاصَّة من عادات العرب واخلاقهم وصنائعهم الى غير ذلك

امين ظاهر خير الله

عروسة النيل

الفصل الحادي والاربعون

زُجَّت باولين ومرضعها في سجن منف سجن القتلة والمجرمين كأنَّها اتت امرًا ادَّا او ارتكبت جناية فظيعة فلما ارخى الليل سدولهُ استولى عليها القلق والقنوط وعبث بها اليأس حتى كاد الجنون يتولاَّها فاذا اطبقت اجفانها وران الكرى عليها علت ضجة المسجونين وجلبتهم في غرف السجن الأخرى فافاقت مذعورة كمن يفيق من حلم مخيف وفيما هي كذلك سمعت وطأ اقدام في الغرفة التي فوق غرفتها فقالت في نفسها ترى من التعيس الذي جاء بهِ سوء بختهِ الى هذا المكان فان السفلة من المجرمين لا يسجنون في هذه الطبقة ونحو نصف الليل سمعت نقرًا على القيثارة وقع في نفسها احسن موقع حتى حسبتهُ بلسمًا لجراح نفسها فنهضت من فراشها ودنت من النافذة فالقت رأسها على حديد الشبَّاك واصغت فسمعت السجين يحادث السجَّان فراعها

صوتهُ وخفق قلبها وتبادر الى ذهنها انهُ اوريون ولم تلبث ان سمعت السجان يناديهِ باسمهِ فتحقق ظنها وظلاَّ كذلك ساعة ثم اقفل السجان باب الغرفة وانطلق في سبيلهِ ودنا اوريون من النافذة يتنشق الهواء فلما ايقنت ان لا رقيب نادتهُ بصوت رخيم فاجابها وناداها وهو لا يكاد يصدق ما يسمع ثم قال انتظريني فصمتت منتظرة ما يكون وهي تحسب الدقائق اياماً فناداها ثانيةً وقال خذي قدت بيدها وامسكت لوحاً دلاَّهُ اليها بوترٍ من اوتار قيثارتهِ فقالت ليت لي نوراً استضيءُ بهِ ثم ربطت وردتين من الباقة التي ارسلتها اليها خيلانة وقالت انتشل ففعل ولما امسكهما شكرها وعمد الى قيثارتهِ فنقر عليها دوراً شجيًّا ولم يزد لان السجَّان حظر عليهِ العزف في الليل ولما عادت باولين الى مضجعها دسَّت الرسالة تحت وسادتها ونامت

هو الحبّ يهزأُ بسلاسل الاسر وقيود السجن فيمزّق نورهُ غياهب الظلمة ويخفف ثقل المصايب والنوازل . فتى وفتاة لم يذوقا مرارة الاسر ولم يعرفا طعم الهوان والذلّ فلما زجَّا في السجن احسَّا ان السعادة فارقتهما وان التعاسة خيمت بجناحيها عليهما فما هو الاَّ ان ايقنا الواحد بقرب الآخر حتى تبددت احزانهما واشرقت شمس افراحهما وذهلا عما يحيق بهما من الخطر كانهما في امنع الحصون لا في قرارة السجون فعاود باولين نضارتها واشرق وجهها وردَّ الى اوريون همتهُ ونشاطهُ

وفي صباح الغد دعيت باولين الى المجلس لمحاكمتها فلما رآها القضاة ووجهها يتدفق فرحاً وحبوراً دهشوا حتى القاضي عثمان فانهُ جزع اذ شهد منها هذا الابتهاج لعلمهِ بما امامها من الخطر فقد كان لدى المحكمة من الادلَّة ما يؤيد التهمة عليها وكان نصف القضاة من المصريين لان المتهمة من سكان منف ونصفهم الآخر من العرب لانهامها بالاشتراك في قتل جندهم وكان عثمان يعلم حق العلم ان القضاة المصريين يقضون على المتهم بالموت اذا كان من ابناء الكنيسة المكية واحسَّ انهم يريدون الايقاع بالفتاة لاسباب خفيت عليهِ فازداد اضطرابهُ وابصر بين الحضور ابولون فتأملهُ ملياً لعلَّهُ يقف على علة حضورهِ فاذا بهِ يرشق باولين بنظرات تشف عن الغيظ الشديد وحب الانتقام

ولمَّا سئلت عما عُزِيَ اليها اصرَّت على ما قالتهُ قبلاً واثبتت بالبينة انها لم تفارق منف وانها كانت في بيت روفينس في نفس اليوم الذي قتل فيهِ جند العرب فسرَّ عثمان بما قالتهُ وتفاءل بهِ لكنها لم تكد تفرغ من الكلام حتى وقف عبادة فدفع الى عثمان اللوح الذي وجدهُ في غرفة اوريون قبل ان احترق القصر فقرأهُ المترجم وعرَّبهُ فسأل القاضي عمَّا تعرفهُ من امرهِ وكانت تجهل وجود هذا اللوح كل الجهل فقالت لا يخفى عليكم ان الراهبات من بنات مذهبي وجنسي

فلا غرو اذا تمنيت لهنَّ الخير ودعوت لهنَّ بالفوز على البطريرك وكلكم يعلم ان المقوقس واعضاء مجلس منف كانوا من انصارهنَّ ولم يتداخل العرب في شؤونهنَّ علماً منهم بما لهنَّ من الفضل على المرضى وذوي الاسقام والعاهات وما قمن بهِ من الخدمات الجليلة ايام الاوبئة وتفشي الامراض . فوقع كلامها موقعاً حسناً من نفوس القضاة لاسيما المسلمين منهم وخال عثمان ان نجاتها اصبحت في حكم الممكن فامر ان يؤتى باوريون للاستفهام منهُ عن مغزى الرسالة والغرض منها فجيءَ بهِ ولما وقعت عينهُ على عين باولين ارتبك ارتباكاً شديداً وسُئل عن اللوح فاعترف بانهُ كاتبهُ وقال ان ما فيهِ اشارة الى ما كان يتهدَّد الراهبات من الخطر الذي حاق بهنَّ ثم قال صحيح انني رفضت اسعافهنَّ ولكني كنت مستعدًّا لبذل ما في وسعي في سبيل انقاذهنَّ حين تعرض الفرصة المناسبة مستعيناً على ذلك بعامل الخليفة فقد كان يرتاي ما ارتآهُ المرحوم والدي في حياتهِ من وجوب الدفاع عنهنَّ . فقال ابولون يا لهُ من فتى ذكي . فضحك عبادة وقال ايها القضاة لايخدعنَّكم من هذا الفتى كلامهُ البليغ وحسن بيانهِ فهو خبٌّ بينهُ وبين هذه الفتاة روابط شديدة وعندي الدليل على صحة ما اقول فهو القيم عليها والوصيّ على اموالها وفضلاً عن ذلك . . . . فقاطعتهُ باولين وقالت حسبك ما قلت وقد فهمت تعريضك وادركت الغرض الذي ترمي اليهِ فاسمعوا جميعاً ان ابن المقوقس خطيبي . فصاح اوريون وقد انعم قلبهُ سروراً وقال لقد سمعتم ماقالت فذلك اسعد امانيَّ واعظمها فابنة توما خطيبتي فذعر القضاة المصريون وتنبهوا كمن اصابهُ صيّب ماء بارد فقال احدهم أنسيت اباك يافتى فيهِ حيًّا اتراهُ يرضى عن زواجك بملكيَّة وقد قتل الملكيون اخويك وسفكوا دمهما . فاجاب اوريون ان ابي بارك اقتراننا على فراش الموت فقال آخر ان صحَّ ما تقول فقد اصاب البطريرك اذ نهى الكهنة عن الاحتفال بجنازتهِ ولعمري ان هذا الخبر من اغرب الغرائب . لكنَّ هذا الكلام وامثالهُ ذهب كرجع الصدى فلم يفقه لهُ الخبّان معنًى وحينئذٍ عادت المحاكمة الى مجراها بين اتهام ودفع حتى اوشكت ان تختم فوقف ابولون وخاطب القاضي وقال ان لديهِ اموراً تختص بالقضيَّة وقد تهمهم معرفتها فلما رأتهُ باولين سُرِّي عنها ظنًّا منها بأن صديق فيلبس لا ينوي لها سوى الخير فقال ابولون في صباح الليلة التي فرَّت الراهبات فيها ذهبت باولين الى الدير فقرعت اجراسهُ . ثم دار اليها وقال ادفعي هذه التهمة اذا قدرت فعندي غيرها . فنزل كلامهُ عليها كالصاعقة ورأت ان الخطر تجاوزها الى زوجة روفينس وابنتهِ . فقال القاضي وعلامَ قرعت الجرس فاجابت فعلتُ ذلك تسهيلاً لفرار الراهبات فاني احبهنَّ . فصاح عبادة انها فعلت ذلك لتخدعنا نحن حكام هذه البلاد فسفكت دم اولئك الرجال . فاومأ اليهِ القاضي بالسكوت ودعا الحامي عن باولين الى

الدفاع عنها وكان هذا قد اعدَّ دفاعاً ممتع الالفاظ كعادة المحامين في ذلك العصر فاخرج القرطاس وتلاهُ فذهب كلامهُ ادراج الرياح وافرَّت المحكمة على اعتبارها مجرمة ثم اخذ القضاة ينظرون في تعيين العقاب فتلا القاضي عثمان خلاصة القضية واشار بالايجاز الى ما ثبت من اتِّهام باولين بمساعدة الراهبات والسعي في انقاذهنَّ الى ان قال وقد ثبت ايضاً انها لم تكن معهنَّ يوم الواقعة ولا يستغرب ما فعلتهُ من فتاةٍ متعبدة سعت في انقاذ اخواتها في الايمان من الاضطهاد . وكان يتكلم والبلاغة تتفجر من فيهِ رغماً عن اعتراض عبادة حتى اقنع جلَّ قضاة المسلمين بوجوب الرأفة فلما اقترعوا حكم القضاة المسيحيون بالاعدام بالاجماع وخالفهم قضاة المسلمين الاَّ واحداً فصدر الحكم بالاعدام. ولما سمعهُ اوريون صار الضياء في عينيهِ ظلاماً حتى لم يعد يعي على شيءٍ فدنا منهُ عبادة وقال باليونانية سيأتي يومك قريباً يا ابن المقوقس . فهمَّ اوريون باجابتهِ ولكنهُ التزم الحذر ورأى السكوت من الحكمة فدنا منهُ عثمان وقال اصبت في ما فعلت فالنسر لا يستطيع ان يحلِّق في فضاءٍ كما لو كان في الهواء ثم اومأ الى الحراس يردّهِ الى السجن واقترب من باولين فقال لقد حكموا عليكِ ايتها الفتاة النبيلة على ان في وسع مولانا الخليفة نقض حكمهم والعفو عنكِ وقد عزمت انا وبعض اصدقائي على رفع الامر اليهِ . ولما انصرفت التفت الى من حولهُ فقال ارى فؤادي يقطر دماً وقد كلفني النطق بهذا الحكم عناء جزيلاً

الفصل الثاني والاربعون

وتبع ابولون عبادة بعد خروجهما من المجلس فطلب اليهِ ان يأذن لهُ في مفاوضتهِ على حدةٍ ففعل ولما خلا بهِ اطلعهُ على ما دبَّر لباولين طالباً مساعدتهُ على اتمام العمل فاستحسن عبادة رأيهُ الاَّ انهُ شرح لهُ ما يعترضهما من العقبات فعمد ابولون الى التزلف والاقناع فلم يفلح واخيراً قال لعبادة اذا منحتني مبتغاي اعطيتك ما يثبت التهمة على اوريون فلا يبقى لهُ امل في النجاة قال وماذاك قال هذا وناولهُ لوحاً من الشمع. ومن خبر هذا اللوح ان ابولون قبل دعوة روفينس بعد سفر الطيب فهجر منزلهُ واتخذ بيت الارملة مسكناً فنقل امتعتهُ وطروسهُ اليهِ فوضعها جميعاً في مكتبةٍ كانت خاصة بباولين ولما فتح المكتبة عثر على رسالة خطها اوريون وارسلها الى باولين يوم جاء الى بيتها مودعاً واستبطأها فقال فيها انهُ ذاهب لوداع عمروٍ وكانت الكتابة محوة الاَّ جزءاً منها فيهِ الكفاءة لاثبات اشتراك اوريون في اعداد المعدَّات ونحوها فلما اطلع عبادة على ما في اللوح مرَّ بهِ وقال لابولون امر باولين اليك فافعل ما تشاء . ودعا السجان اليهِ وقال اذا نجا هذا السجين من يدك فدمك هدر ثم امتطى جوادهُ وسار في سبيلهِ. اما ابولون فركب حمارهُ وذهب توًّا الى مجلس منف فطلب من الرئيس ان يدعو الاعضاء

لعقد جلسة في ذاك المساء وعاد الى مسكنهِ الجديد فدخل غرفتهُ فاذا بها مكنوسة نظيفة وقد رشت ارضها بالماء وصفَّت الازهار على الموائد ورتبت الطروس والدفاتر في اماكنها فارتاح لجميع ما رأى واخذ يفرك يديهِ فرحاً وبعد هنيهة جاءت ماري تدعوهُ الى الغداء فامسك بيدها ونزل الى حيث كانت النساء فحيانَّ وقد ابرقت اسارير وجههِ وانبعث الفرح من عينيهِ فاخذ يطرفهنَّ بالنكات والاحاديث ويقابل بين سوء معيشتهِ في الماضي ورخاء عيشهِ في بيتهنَّ ثم دار الى هيلانة فقال ومتى عاد الحبيب فيلبس كل عددنا نكنا كنجم مصري مخمَّس فجميع نجوم المصريين المنقوشة على الحجر او المصورة مخمسة. فصاحت ماري وقالت اذاً آمل ان تكون حينئذٍ نجماً مسدساً اذ يحدث ان تعود الينا الحبيبة باولين. فامَّنت الارملة وابنتها على دعائها اما ابولون فانقبض وعبس وبدا الغيظ في وجههِ فسألتهُ هيلانة عن علة انقباضهِ فقال لست اطيق اسمها فلا تعدنهُ على مسمعي فقالت ماري اتعني باولين فآه لو عرفتها . . . .

فقال عرفتها حق المعرفة فاعلمنَّ انني احب اهل هذا البيت وقد لقيت فيهِ تلك الراحة التي كنت اطلبها في ما غبر من حياتي واراني اليوم شابًّا لاشيخًا هرمًا على اني اكره تلك الفتاة واكره اسمها فاذا اصررتنَّ على التحدث بشؤونها والاطناب في وصف محاسنها بغية ان تحببنها اليَّ اضطررت الى مغادرة هذا المنزل بما فيهِ من رغد العيش وعدت الى بيتي في صدر تلك الفتاة قلب مملوء مكرًا وخداعًا وترينني افضل مساكنة الافاعي على العيشة معها . فوثبت ماري من مكانها وقالت احقًّا ما تقول

فقال نعم يا حبيبتي — فقالت اذاً لست حبيبتك فانت ظالم قاسٍ ولو كنت تعرفها لما وصفت قلبها هذا الوصف

فقال مهلاً يا ابنتي فلنضرب صفحاً عنها فقد حاكموها اليوم وقضي على قلبها بالسكون. فصاحت هيلانة وكاد يغمى عليها وقالت امها رحماك خلِّ المزل فليس هذا مقامهُ

فقال لست هازلاً فقد قضي عليها بالموت . فقالت ماري اتيتنا وانت تعلم هذا فقضيت ساعة في الهزل والضحك غير حافل بالامر اني ابغضك اشدّ البغض ولو لم تكن شيخًا فانيًا . . . . فاسكتتها الارملة واخذت النساء في البكاء والعويل . فقال ابولون لا يأخذكنَّ الحزن فقد اختارتها العناية لامر عظيم قد يكون فيهِ انقاذ البلاد من القحط والوباء فتخلص الامة بموتها نعم ان القاضي عثمان وبعض مريديهِ يبذلون ما في طاقتهم لانقاذها وسيعقدون غداً مجلساً ليقروا فيهِ على ارسال رسول الى الخليفة يلتمس لها العفو لكن الخيبة نصيبهم فعبادة مصرٌ على اعدامها وهو صاحب الامر والنهي في مصر في غياب عمرو بن العاص ولا يخفى عليكنَّ ان عمراً يميل

الى ابن المقوقس فيرجح انهُ يسعى جهدهُ في انقاذ خطيبتهِ . فقالت النساء ومن خطيبتهُ فقال باولين وقد سمعتهُ يدعوها كذلك امام القضاة . فقالت الارملة وفَّق الله الساعين الى الخير فقد حلّ بهذه الفتاة من المصايب ما يزحزح الجبال وكأنك نسيت يا ابولون ان القضاة الذين حكموا على باولين قد يتوسمون في البحث فينزلون الويل ببيت روفينس فيقبض علينا ونزج في اعماق السجون

فقال لا توجسي شرًّا فاني احميكنَّ ومادام فمي ينطق وقلبي ينبض فلن تسقط شعرة من رؤوسكنَّ

فقالت اذا كنت نافذ الكلمة فاسعَ في انقاذ باولين فهي اعز الناس الينا والى فيلبس

فقال ليس ذلك في طاقتي ولست بفاعلهِ فلا تحاولن اغرائي . ولما قال ذلك خرج من الغرفة فصاحت ماري خلفهِ يذهب انَّ الله عادل ثم اجهشت بالبكاء فلم تستطع التلفظ ولما سكن جاشها طلبت من الارملة وهيلانة ان تأخذاها الى السجن فترى باولين فاجاباها وخرجت النساء الثلاث يردنَ السجن فلما بلغن الاسواق الفيتها غاصَّة بالخلق فواصلنَ السير حتى بلغن ساحة المدينة فلم يعدن يستطعنَ التقدم ولا الرجوع فاستولى الخوف على الارملة فقبضت على يد ماري ووقفت مكانها تنتظر الفرج وحانت من ماري التفاتة فرأت رستمًا واقفًا في الجمع وكأنَّ عمامتهُ بين الرجال لواء فاخبرت الارملة فقالت ليتهُ معنا فسلَّت ماري يدها وانسلَّت بين الناس حتى وصلت اليهِ وحينئذٍ ازداد الهياج وعلت الجلبة واتجهت العيون الى المجلس فامسكت بيدهِ وقالت ما الخبر فلم يجبها بل انحنى ورفعها على كتفهِ حيث استطاعت ان ترى ما حولها كانها واقفة على برج ثم سار بها الى حيث الارملة وهيلانة فوقف فقالت ماري يا امَّاهُ ارى حمار ابولون مربوطًا امام مدخل المجلس والقوم يضعون اكليلاً من ورق الزيتون على عنقهِ . ثم نفخت الابواق فكفَّ القوم عن الهرج وسألت هيلانة ماري عن الخبر فاجابت تطلعا في الشرفة فاني ارى اسكندر رئيس المجلس والى جانبهِ ابولون وارى الاول يتهيأ للكلام فقاطعها صوت الابواق ثانيةً فزادت السكينة وحينئذٍ شرع الرئيس يخطب في القوم فقال

— يارجال منف النساء لا اراكم تجهلون عظم المصايب التي ألمَّت بنا فقد نزل بنا ما اجهدنا وكاد يفنينا ولا يزال الشرّ يفاجئنا من حيث لا ندري فنحن اعضاء المجلس الذين وُلّيتنا حكومة المدينة للنظر في شؤونها والاهتمام بامورهم . . . . . فقاطعهُ الجمهور وتعالت الاصوات فمن قائل اذًا فاهتموا بنا وقائل انكم عبارة عن اكياس من الذهب وقائل احفظوا العهود والمواثيق وانقذونا من الهلاك . فنفخت الابواق وثاب القوم الى الوقار فقال الرئيس ظننتمونا احسن منكم حالاً فقلتم ما قلتم فاعملوا اذًا ان القحط والموت فعلا بنا ما فعلا بكم فقد ماتت زوجتي وابنتي

امس بالوباء . فوقع هذا الخبر من السامعين اشدّ الوقع وبكى بعضهم اذ رأوا قائلهُ يمسح عينيهِ فاستطرد الكلام وقال فاذا كان ينكم من يستطيع اثبات تقصيرنا فليبكّتنا امام الله والخليفة واهل منف فاتركوا النوح والعويل اليوم فالفرج قريب باذن الله ولننظر معاً في الوسيلة الوحيدة التي تبلغنا الغرض فقد تضرعنا الى الله كما يفعل المسيحيون ودعونا الفادي وتوسلنا الى الكنيسة ولم ندخر وسعاً في تقديم الصلوات واقامة الحفلات الدينيّة والرياضات والتقشفات والتقدمات فلم تغنِ فتيلاً وليت الله اكتفى بما ضربنا بهِ فان الضربات ما برحت تزداد حتى تراكمت علينا كانها رمال الصحراء فعمدنا الى السحرة والعرافين فكنّا كصارخٍ في وادٍ فتذكرنا حينئذٍ اسلافنا الامجادَ وذكرنا ان بين ظهرانينا رجلاً يعرف ما غاب عنّا من حكمتهم رجلاً قضى حياتهُ في درس علوم الاوائل وفي يدهِ مفتاح اسرار القدماء وكنوز حكمتهم وقد قصّ علينا هذا الحكيم ما كان يفعلهُ القدماء من سكان هذه البلاد اذا نزلت بهم رزيئة كالتي اثقلت كاهلنا وسيطلعكم ابولون هذا الحكيم الذي ترونهُ واقفاً الى جانبي على السرّ وترون الطروس في يديهِ ففيها ما ينبئكم بالخبر اليقين . فصاح الجمع بصوت واحد فليحيَ ابولون المنقذ فانحنى الشيخ وطلب الى الرئيس ان يتولّى اتمام الحديث فقال اسكندر

ايها الاخوان لا سبيل الى نيل هذه الاماني الاّ ببذل كل مرتخصٍ وغالٍ هذا ما عرفهُ القدماء فجروا عليهِ فاذا قصّر النيل عن الوفاء قدموا لهُ ضحية ثمينة فاختاروا فتاة بارعة الجمال طاهرة . . . اني اراكم تشمئزون وتنفرون ولا غرو فالنفس تعاف تقديم هذه الضحايا لكني لا ارى موجباً لهذا الاشمئزاز وذاك النفور فليس هذا اول عهدنا بتقديم الضحايا وبذكر جميعكم اننا في ليلة النقطة القينا في النيل صندوقاً فيهِ اصبع انسان[1] فهذه التقدمة الصغيرة رمز الى التقدمة الكبيرة التي اشرت اليها ولم نسمع في ما اتانا من الانباء ان احداً من ابناء الكنيسة شجبها فقد القيت في الماء برأيٍ من انطونيوس واثناسيوس وثيوفيلس وغيرهم وقد يداخلكم الريب ويستولي عليكم الجزع ظناً منكم بان الضحية ستكون من بناتكم ونسائكم فقرّوا عيناً واعلموا ان شرائع اسلافنا تحظر سفك دم المصريين في هذه الاحوال فلا يضحّى سوى الاجانب او الذين يعبدون غير آلهة المصريين وقد اسعفنا القدر على نيل بغيتنا اليوم فارسل الينا فتاة اجنبيّة جميلة حكم عليها القضاة بالاعدام لجريمة لا تشين طهارتها ولا تمسّ نقاوتها وهي رومية ملكية تورّرت فيها جميع الشروط المطلوبة فاستعدوا وافرحوا فقد دنا الفرج . فارتفع ضجيج استحسان السامعين

(١) كان المصريون المسيحيون يلقون في النيل صندوقاً فيهِ اصبع انسان ليسهلوا ماء النهر على الارتفاع وظلوا يفعلون ذلك الى القرن الخامس عشر — ذكرهُ المقريزي

وعلا صراخهم قائلين خذوها الى النيل زوجوا النيل بهذه الملكية هاتوا الاكاليل لعروسة النيل اسرعوا بالازهار لعرسها . لتجرِ على تعاليم اجدادنا وليجيَ رئيس المجلس والشيخ الحكيم

وبينما القوم يطفرون فرحًا ويرقصون طربًا اذا برجل متردٍّ بالحلل الكهنوتية وعليهِ سيماء الرزانة والوقار جاء يخترق الحشد على مهل رافعًا يدهِ صليبًا فلما توسط الجمع خشعت الابصار وهدأت الاصوات وكفت الجلبة وظلَّ الرجل سائرًا على مهل حتى وصل الى سلَّم المجلس فصعد عليهِ ودخل وبعد قليل خرج الى الشرفة واطلَّ على الجمهور فرفع الصليب ولبث كذلك هنيهة فلما رآهُ ابولون قدحت عيناهُ شررًا فطلب الى رئيس المجلس ان يمنعهُ عن الكلام لكن الكاهن نظر الى الاثنين مغضبًا فظأطأ اسكندر رأسهُ وسكت سائر الاعضاء اذ لم يخفَ عليهم ان الرجل مطران منف الجديد المشهور بغزارة علمهِ وفضلهِ وشدة بأسهِ فلما سادت السكينة خاطب الجمهور فقال

تأملوا هذا الصليب واصغوا الى كلام كاهنهِ فانتم تتعطشون الى نعمة الفادي ولا تزالون تتوقون الى ضلال الوثنيين وعبثًا تتململون من كلامي فلن يسكتني تضجركم فالحق ينطق بي ولن يخرس احد الحق فاعلموا انني أقمت خلفًا لمطرانكم المتوفى وعزمت على القبض على عصا الرعاية برفق واحسان فاذا احرجتموني صارت سوطًا وسيفًا في يدي حتى تدمى جراحكم فانظروا صورة فاديكم في يدي فاني ارفعها سدًّا يحول بينكم وبين هذه الضلالة التي تتقيئونها بفرح وابتهاج فانتم ملعونون ملحدون فارفعوا قلوبكم وتأملوا هذا الذي مات على الصليب ليفتديكم ولكنكم قليلو الايمان اذا اظلم الليل قلتم في النور واذا أصبتم بمرض قلتم عجز الطبيب فما هذا الذي انا سامع المعجز الله وكنيستهُ وينقذكم السحر وفجور الوثنيين أبعدهذا تجديف وكفر . امَّا وقد عدمتم الثقة بالله ولجأتم الى السحر وشرّ الوثنيين فسيتلو القصاصُ القصاصَ والعقابُ العقابَ حتى يطمركم الرماد والتراب فتئنون وتتوجعون وتطلبون العون الالهي في اشد الضيق . يا اولاد مولك ان الفتاة التي عزمتم على القائها في النهر هي تحت حماية الكنيسة العظمى وموت جسدها يؤدي الى هلاك نفوسكم فاطرحوا امالكم الفاسدة وانبذوا اعمالكم القبيحة . فقاطعهُ ابولون وقال واجلسوا مكانكم حتى لا يبقى القحط والطاعون على احد منكم . وسمع الوفد هذا الاعتراض فقابلوهُ بالاستحسان وقال رئيس المجلس ان الناس يموتون والبلاد سائرة في طريق الخراب وعلَّة مصابنا هبوط النجر فدلَّنا على سبيل النجاة او فاتركنا وشأننا نلجأ الى حكمة اسلافنا . فانتهرهُ المطران وقال لا علاج لكم سوى الايمان والرجاء والصلاة . فقال الرئيس اراك تجهل مقدار ما اصابنا من النوازل ولا غرو فانك لم ترَ زوجة في حشرجة الموت

او ابناً تخمد انفاسهُ في اول العمر . فصاح الشعب من اسفل " الضحيَّة الضحيَّة " وقال آخرون ايتونا بالفتاة فنلقيها في النيل . فاعترضهم فريق وصرخوا فانبرى مسيحيين وليحيّ المطران يوحنا ان نفوسنا اثمن من اجسادنا فحاول المطران ان يخاطب الشعب ثانية فاخنق وسدّى يوقّى المبوقون يدعون السامعين الى السكينة فذهب تبويقهم ادراج الرياح وانقسم الجمهور قسمين كلٌّ يناضل عن مبدإهِ ولم يطل بهم الجدال حتى اخذوا يتلاكمون ويتضاربون فاسرعت النساء في الخروج من الزحام وهجمت كوكبة من فرسان العرب على المتضاربين ففرقتهم

اما المطران فاعلن للمجلس ما عزم عليهِ من منع تضحية الفتاة قائلاً سارسل اليوم رسالة الى البطريرك فنرى ما يقول فاجابهُ ابولون ان عامل الخليفة في هذه الديار اذن في تضحيتها فستضحّى وينقذ الشعب رغماً عن جميع رجال الكهنوت . فاخذ الغيظ من المطران كل مأخذ وقال ساعاقب الذين اشاروا بهذه الفعلة الشنعاء بالحرم فقال ابولون افعل ما تشاء وانحاز اعضاء المجلس اليهِ فانصرف المطران وهو يتميز غيظاً

الفصل الثالث والاربعون

وبعد ان خرجت النساء سرن الى السجن ليزرن باولين فلم يأذن لهنّ السجان في الدخول عملاً باوامر عبادة فتوسلن اليهِ وبكين فرقّ لهنّ وبعد اللتيا والتي فتح الباب المؤدي الى غرفتها فدخلن وابصرنها واقفة امام النافذة تصغي الى صوت قيثارة اوريون وارادت ماري ان تطرح نفسها عليها فامسكتها الارملة ومنعتها كل هذا وباولين غير منتبهة الى وجودهنّ معها فلما دعونها دارت اليهنّ وصاحت فرحاً فاسرعت اليهنّ وقبلتهنّ فطوقتها الارملة بذراعيها وبكت وراعهنّ ما رأين من ثبات جاشها ورزانتها اذ حسبنّ ان سجنها ومحنتها يذهبان بنضارة وجهها ورونقهِ فاذا هي كاحسن ما عرفنها وكأنها في نعيم مقيم لا في اعماق السجون والموت يترصدها فقلن في انفسهنّ لعلها جاهلة ما سيحلّ بها فلما جلسنّ انبأتهنّ بما تمّ من امرها فبكينّ واعولنّ فقالت لا يحزنكنّ امري فقد وعدني القاضي خيراً وسيرفع قضيتي الى الخليفة طالباً العفو عني وكانت ماري تنوح فاخذت باولين تعزيها وتطيب خاطرها قائلة ان المصايب تعلّم المرء الصبر والتسليم فقد استفدتُ من مصيبة بيت روفينس ما سهل عليّ احتمال محنتي هذه . وبعد ان قضينّ ساعة قرع السجان الباب يدعوهنّ الى الخروج فنهضت باولين وقالت عندي رسالة لاوريون ولست آمن غريباً فخذيها يا حبيبتي ماري اليهِ ثم اخرجت الزمردة وناولتها لماري واعطتها لوحاً مكتوباً وقالت ادفعيهما اليهِ وقولي لهُ ان يعتبر الزمردة ملكهُ فيدفع غضب الكنيسة عنهُ ففعلت ماري كذلك وسلمت الرسالة والزمردة الى اوريون فلما قرأ المكتوب قالت ماري لقد

تمت نبوتي وباولين اليوم خطيبتك فقال صدقتِ ولكني لم اكد اربحها حتى خسرتها

فقالت ان القاضي صديقكما وسيلتمس لها العفو من الخليفة

فقال ولكن عدوًّا جديدًا قام لنا في شخص ابولون

فقالت تبًّا لهُ من خدّاع ماكر

فقال ليت عمرًا يعود فنجاتنا بهِ وقد كان لي بمثابة ابٍ وقبل ذهابهِ كلفني القيام بعمل شاق وحاولت امس ان اضع قواعدهُ فلم استطع الكتابة اذ ينقضي الخرائط والدفاتر اللازمة وكان نيلس قد جمعها سوية وامرت من يلزم بنقلها الى بيت روفينس ولست ادري ما صارت اليهِ بعد احتراق البيت

فقالت ان هذه الخرائط والدفاتر في بيت روفينس وقد رأيتها بنفسي. ففرح اوريون وضمها الى صدرهِ وجعل يقبّلها ثم جمع يدهُ وضرب بها الجدار وقال لقد وجدنا الخرائط والدفاتر الضائعة يا نيلس وسآتي بها غدًا

فقال نيلس انها بشارة مفرحة ونحن في حاجة الى العمل دفعًا للهم والقلق فقد نقل اليَّ اليوم سجين جديد اخبارًا يسوءك سماعها

— بشأن خطيبتي نعم لقد بلغني

— ويقول السجين ان قد جاء رسول من عمرو ينبئ بوصولهِ الى المدينة حيث لا يطيل المكث وعليهِ فسيعود الينا قريبًا

فقال اوريون فينتج من ذلك انهُ غادر المدينة قبل وصول رسول القاضي اليها فلم يبقَ لنا امل الاَّ في عمرو وليتنا نستطيع اطلاعهُ على حقيقة حالنا قبل ان يصل

فقال نيلوس من لنا برسول امين يحمل رسالتنا اليهِ فقد تشتت اتباعنا . فقالت ماري انا اجد رسولاً كفأً وقال اوريون وانى لكِ ذلك فاجابت ان الرسول سيبرح منف غدًا فاتكلا عليَّ فعليكما الآن ان تدلاَّني على الطريق الذي يجب على الرسول سلوكهُ واكتب يا عمّاهُ اسماء المحطات على هذا اللوح فلا انساها ثم ناولتهُ لوحًا من الشمع فرأى عليهِ صورة قلب وحولهُ مربعات فقال وما هذا فاحمرت وقالت هذا قلبي وهذه المربعات اشارة الى اجزائهِ التي وزعتها على من احب فلباولين النصف ولك الربع وهكذا ثم اخذت اللوح فمسحت المرسوم عليهِ وبعد ان كتب اسماء المحطات كما طلبت قال غدًا ارسل اليكِ كتابًا باسم عمرو يأخذهُ الرسول معهُ فقال نيلس ولكن سفرة كهذه تقتضي نفقات كثيرة وجميع ما لدينا من المال لا يكفي فاجابت هي لست في حاجة الى ما لديكم فعندي جواهري ومجوهرات أبي فقال اوريون اياكِ

وبيع هذه الاشياء ثم انتزع خاتماً ثميناً من اصبعهِ وقال خذي هذا واعطيهِ للارملة وفي تبيعهُ لغالائل الصيرفي فني ثمنهِ ما يسدّ الحاجة. ولما فرغوا جاء السجّان وامر ماري بالخروج وفيما هما خارجان سمعا وقع اقدام تخشي السجّان ان يكون القادم عبادة فتوارى عن البصر فاذا بهِ المطران يتبعهُ شماسهُ وقد اتيا لتعزية المسجونين كعادتهما

ولما اجتمعت ماري بالارملة وهيلانة قالت لهما لقد عهد اليَّ بامرٍ ذي شأن وسيشاركني رستم في القيام بهِ وليس من الحكمة افشاء السرّ الآن فسأطلعكما عليهِ متى حانت الفرصة المناسبة وحينئذٍ فتحوا باب السجن الخارجي فخرجنَ وهنَّ يتحسَّرن ورستم يشكو غدر الدهر وتقلبات الحدثان

الفصل الرابع والاربعون

ولما توسطوا الطريق مشت ماري ورستم امام الآخرين وهو يحرق الأرَم ويعدد ما لباولين من الايادي عليهِ وعلى مانداني الى ان قال وبوّدي لو استطعت . . . . فقاطعتهُ ماري وقالت ولكن في استطاعتك ان تقوم بعمل كبير اذا اردت اسعافها عن طيبة خاطر فقال انني ابذل آخر نقطة من دمي في خدمة تلك السيدة النبيلة فامسكت ماري يديهِ وقالت ان كنت تؤمن بالله فاقسم بهِ او اقسم بعروسك مانداني ان لا تبوح بما سأسرُّهُ اليك ولا تطلع عليهِ احبّ الناس اليك فقال وما ذاك فقالت اقسم اولاً — فاقسم

فقالت اذاً فاعلم اننا في حاجةٍ الى رسول نرسلهُ الى عمرو فيسعى في انقاذ باولين فهل تعرف الطريق بين حصن بابل وبرنيس

فقال نعم ولطالما سلكتها فانها اخصر الطرق الى جدَّة والمدينة

فقالت ليس في منف كلها سوى رجل واحد يمكننا التعويل عليهِ لكن ذلك الرجل يأبى الذهاب ويفضل البقاء مع خطيبتهِ والعودة معها الى بلادهِ على اسعافنا

فقال تبًّا لهُ من نذلٍ . فضحكت ماري لسذاجتهِ وقالت

الم يخطر ببالك انك الشخص المعنيّ فاعلم اننا لا نأمن سواك في هذه المهمة

فقال ولكن سيدي قد يدعوني اليهِ ولا يسعني الاَّ ان ابي طلبهُ

فقالت يصعب عليك هجر خطيبتك وانت ترى تلك السيدة التي احسنت اليكما في مخالب المنون

فقال انتِ تعلمين انني رجل نشأت على السير مع القوافل فليس لقاء الحكام والعظام من شؤوني ولو سعياً لانقاذ ابي من الموت فانا رجل ساذج لا احسن الكلام فاذا لقيت عمرًا وحدي فلا اجسر على مخاطبتهِ

فقالت ومن يكلفك الذهاب وحدك ومخاطبة عمرو انا اذهب معك ولا بدَّ لي من لقائهِ ولو اضطررت الى اتخاذ البستاني الاحدب معي

فقال وكيف تستطيعين احتمال المشقات والسفر الطويل وانتِ فتاة صغيرة

فقالت ليس رفيقك الفتاة ماري وانما هو فتًى اسمهُ ماريوس

فقال سمعتك تقولين انك انت تذهبين معي

فقالت ما ابطأ فهمك فاتنكر في زي صبيٍّ حتى اذا رآني بعض من يعرفني خالني اخي. فضحك رستم وقال احسنتِ وانا رهن اشارتكِ وتريثني مستعدًّا للسفر وقتما تريدين فماذا تقول هيلانة وامها اذا هما درتا بذهابكِ

فقالت ستعلمان ذلك بعد ان نخرج من منف وحينئذٍ تدعوان لنا بالسلامة ويسهل الله سبيلنا . وظلت ماري تتوسل اليهِ تارة وتهزأ بهِ اخرى وتذكرهُ بما فعلتهُ باولين لهُ وخطيبتهِ وتمدد الانظار المحدقة بها حتى اقتنع بوجوب ذهابهِ معها فوعدها خيرًا . ولما افترقا ضربت لهُ موعدًا للسفر نحو نصف الليل نهضت من سريرها وكانت المهذبة اليونانية نائمة معها فانسلَّت الى الغرفة المجاورة واضاءت مصباحًا فتبعتها المهذبة ترقب حركاتها فخلعت ثيابها وتناولت ثوب صبي خاطتهُ هيلانة لابن البستاني فلبستهُ وشرعت تتأمل نفسها ثم خلعتهُ وجلست تكتب ولم يطل بها المقام حتى هبَّت من مكانها ونادت المهذبة فخرجت هذه اليها وقبل ان تسألها عن غرضها ابتدرتها ماري بالكلام فقالت

— ان الله يدعوني الى القيام بمهمة ذات خطر وقد رأيت ان اطلعكِ على ما عقدت النية عليهِ واسألك النصيحة ثم طوَّقت عنقها بذراعيها واستحلفتها ان تكتم سرها قائلة ان الامر يتعلق عليهِ خلاص اوريون و باولين من السجن والموت ثمَّ بكت فرقَّت المهذبة لها وقبلتها وهي تدعوها باحب الاسماء والنعوت فزاد ذلك في جرأتها فنهضت من مكانها واسكت الانجيل ووضعت يد المهذبة عليهِ وقالت اقسمي انكِ تحفظين السرّ فقالت كلاَّ فقد وعدتكِ ولا يجوز لنا القسم فالحت ماري عليها واخذت تستعطفها حتى لم تخلِّ لها بابًا للرفض فتعلت اكرامًا لها ثم انطرحت على مقعد هناك وجلست ماري بجانبها فبسطت لها ما عرفتهُ من امر باولين والحكم عليها وما يتهدَّد حياة اوريون من الخطر وافاضت في وصف ما يلقاهُ من العناء عملًا منها بان ذلك يحرك قلبها لما آنستهُ من ميلها اليهِ الى ان قالت وقد ارتأيت ان اسافر بنفسي فالاقي عمرًا واشكو اليهِ . فلمَّا سمعت المهذبة ذلك الكلام اعتراها اضطراب شديد فنهضت من مكانها وقالت لقد تجاوزتِ الحدَّ فلن آذن لكِ في السفر فانما تسيرين الى الموت العاجل . لكن كلامها

لم يحول ماري عن عزمها فاخذت تبين لها ضرورة السفر وقالت انني لا احفل بالمخاطر فقد اعتدت الركوب واجد فيهِ لذة عظيمة امَّا الحرّ فقد نشأت فيهِ ولست بذاهبة وحدي فرستم الجبَّار يرافقني ويحرسني وفضلاً عن ذلك ففي الطريق محطات ينزل فيها المسافر فيستريح من عناء السفر ولا اراكِ تجهلين ان في نيَّة المطران ارسالي الى احد الاديرة لاترهَّب فيهِ ولا اكرهَ اليَّ من الترهُّب فاذا بقيت هنا ارغمني على ذلك ولم تجدكم مقاومتكم لهُ نفعاً فخير الامور لي الذهاب حتى اذا لقيت عمرًا وبسطت لديهِ جميع هذه الامور لقيت منهُ مدافعاً عني ونصيرًا لها. وكانت تتكلم وهي تشرق بدمعها حتى غصَّت فرثت المهذبة لها وقالت افعلي ما تشائين ولا تبطئي

وفي الصباح نهض اهل البيت من النوم واجتمعوا كالعادة فراعتهم من ماري هيئة الرضا والفرح البادِيين على وجهها فطلبت ان يؤذن لها في الذهاب الى المدينة لقضاء بعض الحاجات لعمها فاجيب طلبها فارسلت الخرائط والدفاتر الى السجن فلما عاد الرسول ناولها كتابًا من اوربون وهي الرسالة التي كان يريد ارسالها الى عمرو فدستها في جيبها وانطلقت مع رستم الى المدينة فاخبرها انهُ دبر ما يحتاجان اليهِ من الركائب والطعام والخدم وانهُ اشترى خيمة لها للمبيت وظلاَّ سائرين حتى بلغا بيت غمالائيل فامرتهُ بانتظارها ودخلت فلقيها الجوهري بالترحاب وقد رأى فيها البقية الباقية من ذلك البيت العظيم فسألها عن حالها فتبسمت واحمر وجهها ثم ابرزت الخاتم وقالت اشترِ هذا مني فاني في حاجة الى الدراهم

فاجاب الخاتم ثمين لكننا لا نعامل الصغار

فقالت كيف العمل وبي حاجة الى المال

فقال اذا كنت تحتاجين الى شيء لانفاقهِ في الطعام اعطيتكِ ما تطلبين لكني اعلم ان بيت روفينس مملوء خيرًا وشبعًا وقد اودع جدك عندي منذ سنتين مبلغًا طائلاً من المال باسمك فلستِ اذًا في حاجة الى المال للانفاق على نفسكِ

فقالت اني محتاجة الى المال لا للانفاق على نفسي فاعطني من مالي مقدار ما احتاج

فقال ولكن ذلك ليس بالامر السهل اذ ينبغي لهُ شهود ومجلس ووصي فلا تنسي اننا في مصر

فقالت اذًا فاشترِ الخاتم

فقال لعلكِ نسيتِ الزمردة فقد كلفني ابتياعها عناء كبيرًا ولست اشتهي ذلك العناء فخذي خاتمك فعندي من الحجارة الثمينة ما يقدر بالالوف. فحزنت وسالت دموعها على خديها حتى احزنتهُ فقال

لا تستسلي لليأس والقنوط وبكاؤكِ يسوءني فاعلمي ان غمالائيل غنيٌّ وانهُ يحب العطاء

كما يجب الاخذ فلست في حاجة الى خاتمك فارفعي عينيك الى الرجل الذي كان موضع ثقة جدك وقولي لهُ يلزمني كذا من المال ولا بدَّ لي منهُ. فسرَّت ماري وآنست منهُ الاخلاص في المقال فاستحلفتهُ ان يكتم السرَّ ثم باحت لهُ بجميع ما عزمت عليهِ من لقاء عمرو وبذل كل مرتخص وغالٍ في انقاذ باولين واوريون. وكان غمالائيل يصغي اليها وقد اعترتهُ الدهشة فلما فرغت قال لها كم يلزمك من المال فقالت كذا ففتح صندوقًا من الحديد واخرج كيسًا ملآن ذهبًا وقال اللهمَّ اجعل ابنتي راعوث كماري حفيدة المقوقس العادل . ثم اقفل الصندوق وعدَّ الدنانير ووضع ما بقي في جيبهِ وقال عديها وضعيها في هذا الكيس وانظريني حتى اعود ولما رجع قالت عددتها فوجدتها ناقصة دينارًا واحدًا فرفع يديهِ الى السماء وقال لله ما اذكاها فخذي الدينار يا ابنتي واسمعي نبوة رجل عرك الدهر ان الله يبارك جميع اعمالكِ وهنيئًا لمن تكونين زوجتهُ والآن فاكتبي اسمك على هذا الصك نعم ان لا قيمة لهُ اذ انت قاصرة ولكنهُ مطابق للعرف. فاخذت القلم ووقعت اسمها بعد ان قرأت المكتوب في الصك فصاح

— ان هذا لمن الغرائب فتاة .... صغيرة ... تقرأ وتدبر الامر بنفسها ولا توقع اسمها قبل ان تتفهم ما في الصك فليباركك الله يا ابنتي وليُنجح جميع مساعيكِ

الفصل الخامس والاربعون

وفي الغد امر القاضي بان يؤتى باوريون لمحاكمتهِ فجيءَ بهِ وكان المجلس مؤلفًا من قضاتهِ بالامس وجيءَ بباولين والمطران وغمالائيل شهودًا فوقف المدعي العمومي واتَّهم اوريون بسرقة الزمردة التي وهبها ابوهُ للكنيسة فتولَّى اوريون الدفاع عن نفسهِ وسرد على مسمع القضاة ما قالهُ للبطريرك في شأن الزمردة ثم قال ولما كنت اشتهي ان تنفضَّ هذه المسئلة على وجه لا يبقي مجالاً للقال والقيل فاني مستعد لاعادة الزمردة ثم اخرج الحجر الذي ارسلتهُ اليهِ باولين ودفعهُ الى القاضي فتناولهُ للطران فدهش هذا وبدت امارات الريب على وجههِ فقال انَّى لنا ان نتأكد ان هذا هو عين الحجر الذي كان في القطيف. فاستاء الحاضرون من ذلك لكنَّ القاضي نبههم الى صوابية كلامهِ وقال اتاني كتاب من هاشم يقول فيهِ ان ابنة وزن زمردة القطيف في جدة فبلغت كذا وعليهِ فانني اكلف غمالائيل ان يزن هذا الحجر فصدع غمالائيل بالامر واخرج ميزانهُ فوزن الحجر مرتين وفعل ابولون كذلك. كل هذا واوريون وباولين ينظران الى الميزان وقلباهما يخفقان فلما فرغ من الوزن اذا بالحجر اثقل من زمردة القطيف ببعض قمحات. وقال غمالائيل ان هذه الزمردة من اصفى الجواهر التي رأيتها واثمنها. فسرِّي عن نفس اوريون واخذ القضاة ينظرون في علة هذا الفرق فاجمعوا على انَّ ابن

هاشم اخطأ في الوزن اذ لا يعقل ان الذي سرق زمردة القطيف يستبدلها باخرى ابهى منها واثقل وزناً فاقتنع المطران بصحة استنتاجهم وسكت

وكان عبادة في خلال ذلك يرشق اوريون بنظرات تكشف عن كرهه وايقانه بالظفر فلما فرغوا من امر الزمردة وقف المدعي العمومي فاتهم اوريون بالاشتراك في انقاذ الراهبات. فدفع اوريون هذه التهمة مثبتاً براءتهُ الى ان قال وقد كنت يوم القتال في بيت عمرو بن العاص ثم عدَّد ما لقيهُ من الظلم وما اصابهُ من الاستبداد من حجز املاكهِ ومقتنياتهِ وحرق بيتهِ وقال ان ذلك تمَّ استناداً الى شبهة لم تؤيد فانا استعين على رفع الظلم بعدل القضاة فاذا لم التقَ منهم اذناً سامعة فاني رافع امري الى الخليفة. ولما فرغ وقف عبادة وناول القاضي لوحاً وقال هذه رسالة ارسلها هذا الفتى الى باولين وفيها ما يؤيد جريمتهُ فاطلب فحصها. ثم اومأ الى ابولون ان اقرأها فاعترضهُ القاضي وطلب من المترجم تعريبها ففعل وكان بعض ما فيها محواً فلما جاء على آخرها سأل القاضي عبادة فقال اين وجدتم هذا اللوح فاجاب اخرجناهُ من درج باولين وقد وجدهُ ابولون فالتفت القاضي الى باولين وقال أصحيح ما يقولان

فقالت نعم يا مولاي فاللوح لي وقد سرقهُ هذا الشيخ النذل من درجي ثم اشتدَّ بها الحنق فصاحت اليس ينكم من تهزهُ النخوة فيشتق على الطهارة وسلامة النيَّة فيذهب الى زوجة روفينس وينبهها الى ما فعلهُ هذا الشيخ الذي لقي في بيتها الترحاب والحفاوة فاتخذها ذريعة لاتمام مقاصدهِ السيئة. فاضطرب ابولون واخذتهُ الرعدة حتى اذا اراد الكلام خانهُ النطق وتخاذلت ركبتاهُ فجلس مكانهُ لا حراك بهِ واومأ غمالائيل الى باولين بانهُ سيقوم بالمهمة التي عينتها فيطلع اهل بيت روفينس على خيانة الشيخ. وحينئذٍ امر القاضي الترجمان ان يقرأ اللوح على مسمع القضاة ففعل وهو يتعثر بالكلمات لعدم وضوحها وآنست باولين منهُ ذلك فخطر ببالها خاطر ملأ فؤادها بهجة وسرَّة وكان في جملة ما جاء في الكتاب ما نصهُ

كنت اودّ ان ينقضي هذا النهار الذي قضيناهُ في اعداد المعدات لفرار الراهبات على غير هذا الوجه وقد بذلت طاقتي في اسعاف الاخوات البريئات اللواتي يراد اضطهادهنَّ لغير ذنب واملي اننا نستطيع الاجتماع غداً في متَّسع من الوقت فيحمل كل منا ذكرى تنفعهُ ايام الفراق الطويل ويكون منها غذاء لقلبينا في المستقبل. ان العامل عمراً كبير الهمة ابيّ النفس وهو من العرب ما كان فقيدنا الذي نرثيهِ من المصريين ..... وهنا لم يعد في طاقة الترجمان القراءة فاعلن ذلك للقاضي فقال عثمان اذا صحَّ احتمال ان الكاتب لم يقاتل جندنا فلا ريب في انهُ كان عالماً بفرار الراهبات وانهُ ساعدهنَّ على قدر طاقتهِ فقولي ايتها الفتاة متى جاءتكِ هذه الرسالة

فقالت انها لم تأتني بل قد كتبتها بنفسي

فقال أصحيح ما تقولين

فقالت نعم فالرسالة مني لاوريون

فقال فكيف اتفق وجودها في درجك

فقالت الامر بسيط فقد كتبتها لخطيبي واردت ارسالها اليهِ فجاء بنفسهِ ولم يعد ثَمَّت من حاجة لارسالها فالقيتها بين سائر الالواح في الدرج . فصاح اوريون وقال انهُ اختلاق محض فلا يغرنكم قول هذه الفتاة فانا كاتب الرسالة وهذا خطي . فقاطعتهُ باولين قائلة اتصدقون كلامهُ ألا ترون انهُ يحاول التلبُّس بجريمتي حبًّا بي فلا يخدعنكم منهُ اضطرابهُ فليس هو بالكاتب فقال اوريون انا الكاتب يا قوم واراد متابعة الكلام فاعياهُ النطق فرفع عينيهِ الى السماء وسقط مكانهُ كمن لا يعي على شيء فقالت باولين

ارأيتم يا سادة سكوتهُ نقد اتضح لهُ خطأهُ فصمت فانا مستعدة للتكفير عمَّا بدلتهُ من المساعدة للراهبات . فصاح عبادة

كذبتِ وربِّ الكعبة وانما فعلتِ ما فعلت قصد انقاذ هذا الفتى أوَ يصدَّق ان كتابًا مختومًا يوجد في درج كاتبهِ بعد مضيِّ اسابيع من تاريخ كتابتهِ . ولا يخفى عليكم ضرورة اتخاذنا جميع الوسائل لمعاقبة الذين اعتدوا على جندنا حفظًا للأمن وصيانةً لنفوذنا في هذه البلاد . فكان لكلامهِ وقع شديد في نفوس السامعين لكن القضاة المصريين لم يكونوا ليطلبوا دم اوريون كما طلبوا دم باولين لرفعة منزلتهِ فيهم وحبهم لهُ ولاهل بيتهِ فجلسوا للمداولة وبعد ساعة نهض القاضي عثمان واعلن نتيجة مداولتهم فقال لم نرَ في فعل المتهم ما يدفعنا الى الحكم عليهِ بالموت كما اننا لا نستطيع تبرئتهُ وعليهِ فسنرفع الامر الى الخليفة او عاملهِ على هذه الديار امَّا المتهم فيعاد الى السجن حتى اذا اتضح ذنبهُ طالتهُ يد العدل

فصاح عبادة حنقًا انا نائب عمروٍ في هذه الديار . فلم يعر القضاة كلامهُ اذنًا سامعة بل اقرُّوا على مضاعفة الحرس على محبس اوريون لئلاَّ يفتك بهِ احد

وعادت باولين الى غرفتها ووجهها يتهلل فرحًا وحبورًا حتى خالت مرضعها ان القضاة قضوا ببراءتها فسألتها عن الخبر فقصت عليها ما كان وانبأتها بخلاص اوريون قائلة اما انا فمقتولة لا محالة واما هو فسيحيا بعدي ويقوم بالاعمال المجيدة التي عُهد بها اليهِ . وحينئذٍ دخل عليهما السجان فقال ان القاضي بالباب يروم مقابلة باولين ثم دخل فحيتهُ باولين احسن تحية فقال اتاني كتاب من هلثم يقول فيهِ ان اباك البطل توما . فقاطعتهُ وقالت أصحيح ما نقول أعثروا على

ابي. فسكّن روعها وقال ان اباك طلب الخلوة في جبل سيناء فقضى هذه السنين فيهِ ناسكاً ولكن الرسول وجدهُ مريضاً على حافة قبرهِ وهو يشكو من الجراح التي اصابت رئتيهِ فايامهُ معدودات. فبكت باولين وقالت أيموت ابي وانا سجينة لا استطيع الذهاب اليهِ . فطيب القاضي قلبها وقال ثم اتاني منذ يومين نبطيٌّ فقال لي ان احد قوّاد الروم ممن حارب المسلمين مريض مشرف على الموت وهو يطلب المجيء الى مصر فهل يؤذن لهُ في ذلك وهل يكون في مأمنٍ من الاسر فلما علمت ان القائد المذكور هو ابوكِ وعدت الرسول بقبولهِ على الرحب والسعة آمنًا مطمئنًا باسم الخليفة فوصل القسطاط اليوم ونزل في بيتي وقد لقيتهُ نحيلاً ضعيفًا لكنهُ يدفع الاجل عنهُ املاً بلقائك فقد نعى اليهِ انكِ قتلتِ في جملة من قُتل في الشام فلما علم انكِ حية تجددت آمالهُ وعاودهُ بعض القوّة وقد امرتهم باعداد الغرفة المجاورة لغرفتكِ هذه فينزل فيها ويبقى الباب مفتوحًا بين الغرفتين. فصاحت باولين أأرى ابي واعيش معهُ فتموت معًا ثم غلب عليها الفرح فاكبّت على يد القاضي تقبلها اعترافًا بفضلهِ وجميلهِ . فاغرورقت عيناهُ وقال الحمد لله فهو الذي قدّر نجاة ابيكِ وسهّل لقاءكما . ولم تغرب شمس ذلك النهار حتى اقبل توما على السجن فلقيتهُ ابنتهُ وانطرحت عليهِ مغمًى عليها ولما افاقت ارسلت كتابًا الى اوريون تخبرهُ فيهِ بعودة ابيها وتقول انهُ يهديهِ بركتهُ. فلما قرأ اوريون الكتاب احسّ كأن يدًا غير منظورة رفعت عن عاتقهِ ثقل اللعنة التي القاها ابوهُ عليهِ فاستولى عليهِ الفرح وشملهُ الحبور

تعاون الحيوان

لما شرحنا طبائع التمساح في المجلد الحادي والعشرين من المقتطف قلنا ان طائرًا صغيرًا اسمهُ القطقاط يدخل فاه التمساح ويلتقط فضلات الطعام من بين اسنانهِ والتمساح راضٍ بذلك مرتاح اليهِ لا يغدر بضيفهِ ولو اكل الطعام من فيهِ . ونقلنا ما كتبهُ بعضهم وكان قد رأى التمساح مرأى العين ورأى هذا الطائر يدخل فاهُ ويخرج منهُ (انظر الشكل التالي)

ومن السهل ان يُكتب فصل طويل عن تعاون الحيوانات لا التي من نوع واحد او من فصيلة واحدة لان هذه امرها في التعاون مشهور بل التي من فصائل مختلفة كالتمساح والقطقاط والطائر الذي يلتقط القراد عن البقر والابل. فقد قضت العناية ان يُسخَّر بعضها لبعض فينتفع الواحد من الآخر ويرد لهُ صاعًا بصاع على غير ما هو شائع بين اكثر طوائف الحيوان والنبات من الجهاد الذي يُقضى بهِ على الالوف لنفع الواحد فيغتذي الطائر الصغير بمئة حشرة